

## مذكرات الأستاذ محمد الميلى

تابعنا القضية الماضية المسار الذي اتخذته جبهة المؤتمر الإسلامي، وكيف انفجرت نتيجة التناقضات بين التيارات التي تشكلها، سواء في البرامج، أو الرؤى السياسية أو تصوره للمستقبل.

♦ بقلم محمد الميلى ♦ الحلقة المئة والعشرون ♦

## ابن باديس يحذر

ووجدنا أنفسنا في نهاية المطاف أمام الدعوة إلى تكوين حزب وطني موحد ومنسجم، وهي دعوة أطلقها رجال من جمعية العلماء، وخاصة ابن باديس والأمين العمودي، كما أطلقها حزب الشعب الجزائري. فمما كان مصير هذه الدعوة. بالنسبة للتيار الذي تمثلته جمعية العلماء نجد أنه كان مشدودا بين طرفين لا يلتقيان: طرف يمثل ابن باديس وصحبه الأوائل مثل الشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ مبارك الميلى والأستاذ الأمين العمودي، وطرف يمثله الشيخ الطيب العتيبي.

بالنسبة للطرف الذي يمثل ابن باديس الأوائل كان في موقف حرج: فقد وجد ابن باديس نفسه عمليا - بين نارين: نار الحكومة الفرنسية التي تأكد أنها غير جادة في مناقشة مشروع بلوم فيبوليت، ونار بعض العناصر الوطنية الذين أولوا دعمه للمشروع المذكور على أنه تأكيد للفرنسية. لذلك نشر مقالا، في 12 فبراير 1937 يوضح فيه موقفه وفكرته، من الناحية المبدئية، في نفس الوقت الذي يدق فيه ناقوس الخطر محذرا باريس من مغبة التمادي في المماطلة.

وقد عنوان مقالة بما يلي: «الجنسية القومية والجنسية السياسية» وهو يعني بالجنسية السياسية، «المواطنة» ويقول موضعا ماذا يعنيه من ذلك: «تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزات ما تختلف الأفراد. ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزات كالأشياء في الأفراد. فالجنسية القومية هي مجموع تلك المقومات وتلك المميزات، وهذه المقومات والمميزات هي اللغة التي يعرب بها ويتأدب بأدابها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والتدريبات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات، والجنسية السياسية أن يكون لشعب ما لشعب آخر من حقوق مدنية واجتماعية وسياسية مثل ما كان عليه مثل ما على الآخر من واجبات اشتراكا في القيام بها لظروف ومصالح ربطت ما بينها. ومن الممكن أن يدوم الاتحاد بين شعبين مختلفين في الجنسية القومية إذا تناصفا وتخالصا فيما ارتبطا به من الجنسية السياسية التي قضت بها الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة. فإذا لم يرتبطا بالجنسية السياسية فلا بد لهما - مهما طال الأمد - من أحد أمرين: إما أن يندمج أضعفهما في أقوىهما بانسلاخه من مقوماته ومميزات من الوجود. وإما أن يبقى الضعيف محافظا على مقوماته ومميزات فيؤول أمره. ولا بد - إلى الانفصال.

وبعد، فنحن الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات التي جعلتنا القومية وقد دلت تجارب الزمان والأحوال على أننا من أشد الناس ملاحظة على هذه الجنسية القومية وإنما ما زلنا على الزمان إلا قوة فيها وثقنا بأدبها، وأنه من المستحيل إضعافنا فيها فضلا عن إدماننا أو حوجنا». إذن فقد حسم الموقف بصورة لا تقبل التأويل: «ليس ممكنا بحال من الأحوال أن تصبح الجزائر فرنسية».

ووجدنا أنفسنا في نهاية المطاف أمام الدعوة إلى تكوين حزب وطني موحد ومنسجم، وهي دعوة أطلقها رجال من جمعية العلماء، وخاصة ابن باديس والأمين العمودي، كما أطلقها حزب الشعب الجزائري. فمما كان مصير هذه الدعوة. بالنسبة للتيار الذي تمثلته جمعية العلماء نجد أنه كان مشدودا بين طرفين لا يلتقيان: طرف يمثل ابن باديس وصحبه الأوائل مثل الشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ مبارك الميلى والأستاذ الأمين العمودي، وطرف يمثله الشيخ الطيب العتيبي.

بالنسبة للطرف الذي يمثل ابن باديس الأوائل كان في موقف حرج: فقد وجد ابن باديس نفسه عمليا - بين نارين: نار الحكومة الفرنسية التي تأكد أنها غير جادة في مناقشة مشروع بلوم فيبوليت، ونار بعض العناصر الوطنية الذين أولوا دعمه للمشروع المذكور على أنه تأكيد للفرنسية. لذلك نشر مقالا، في 12 فبراير 1937 يوضح فيه موقفه وفكرته، من الناحية المبدئية، في نفس الوقت الذي يدق فيه ناقوس الخطر محذرا باريس من مغبة التمادي في المماطلة.

وقد عنوان مقالة بما يلي: «الجنسية القومية والجنسية السياسية» وهو يعني بالجنسية السياسية، «المواطنة» ويقول موضعا ماذا يعنيه من ذلك: «تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزات ما تختلف الأفراد. ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزات كالأشياء في الأفراد. فالجنسية القومية هي مجموع تلك المقومات وتلك المميزات، وهذه المقومات والمميزات هي اللغة التي يعرب بها ويتأدب بأدابها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والتدريبات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات، والجنسية السياسية أن يكون لشعب ما لشعب آخر من حقوق مدنية واجتماعية وسياسية مثل ما كان عليه مثل ما على الآخر من واجبات اشتراكا في القيام بها لظروف ومصالح ربطت ما بينها. ومن الممكن أن يدوم الاتحاد بين شعبين مختلفين في الجنسية القومية إذا تناصفا وتخالصا فيما ارتبطا به من الجنسية السياسية التي قضت بها الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة. فإذا لم يرتبطا بالجنسية السياسية فلا بد لهما - مهما طال الأمد - من أحد أمرين: إما أن يندمج أضعفهما في أقوىهما بانسلاخه من مقوماته ومميزات من الوجود. وإما أن يبقى الضعيف محافظا على مقوماته ومميزات فيؤول أمره. ولا بد - إلى الانفصال.



«إننا بكلنا هذا نعرب عن فكر الأكثرية العظمى من الأمة الإسلامية الجزائرية، ونعلم أن هناك من لا يرضيه هذا وما لهم نظرات أخرى لها حظها من الاعتبار. وإننا نتحقق أن الموقف الذي يقفه البرلمان الفرنسي يوم تعرض عليه المسألة هو الذي يوجه الأمة الجزائرية إحدى الوجهتين فالمستقبل بيد. والأمر له من قبل ومن بعد». أي أن فرنسا هي التي تحدد اتجاه المسار الذي سوف يسلكه الشعب الجزائري: إما اتجاه الاعتراف بكيانه والتعاون بين البديلين كخندان، وإما اتجاه الثورة والاصطدام فالانفصال أي الاستقلال.

وهذا هو نفس الموقف الذي عبر عنه الأمين العمودي في مقال صدر في صحيفة «لاديفانس» الناطقة بالفرنسية بتاريخ 19 مارس 1937 جاء فيه: «فيما إذا لم تتم المصادقة على مشروع فيبوليت، فليس هناك شك في أن الأهالي سوف يلجأون إلى وسائل أخرى، وسوف يبحثون، خارج الأسرة الفرنسية عن الترقية السياسية والاجتماعية التي أعدهم لها تطور بطيء لكنه عميق» أما التيارات التي تشكل منها «المؤتمر الإسلامي» فقد مزقتها إلى الأخرى تناقضات حالت دون أن تتطور صبغة «المؤتمر» إلى «حزب إسلامي» كما كان يدعو لذلك بعضهم. لذلك وجهت صحيفة «لاديفانس» التي اصبغت هي الناطق الرسمي باسم «المؤتمر» نداء يدعو إلى تكوين جبهة سياسية

يتحد فيها علماء الإصلاح السديني، ورجال المؤتمر الإسلامي، وحزب الشعب الجزائري. واقترح في الوقت نفسه حزب الشعب السعي إلى تشكيل «حزب إسلامي» واسع حول برنامج مشترك. لكن هذا الاتجاه الذي كان يلتقي فيه حزب الشعب مع بعض علماء الإصلاح الديني، لم يتحقق، لأن تيارات «المؤتمر الإسلامي» تعرضت هي أيضا لخلافات انعكست سلبا على معنى تكوين حزب إسلامي على أسس جديدة.

فجمعية العلماء قد تلقت ضربة شديدة عبر اغتيال المفتي «كحول» الذي اتهم فيه الشيخ العتيبي بأنه هو الذي حرض على اغتياله. وقد أثرت هذه الحادثة على الشيخ العتيبي الذي أدخل السجن، وشكلت بدايات تفكيره في الانشقاق عن جمعية العلماء الذي تجسم عام 1938. حيث

استقبل الشيخ الطيب العتيبي، من طرف لجنة بمختلف التيارات التي زارت الجزائر للاتصال مشروع بلوم. فيبوليت. والملاحظ أن نفس اللجنة استقبلت بعد ذلك وفدا عن جمعية العلماء لم يحضره الشيخ العتيبي. فمما يعني ذلك؟

مهما يكن من شيء، فقد اجتمع الطيب العتيبي بمقره مع اللجنة البرلمانية يوم 6 مارس 1937. وقد عارض الشيخ العتيبي مطلب التخلي عن الأحوال الشخصية بالنسبة للمستفيدين من هذه الفترة، أي بعد خروج الشيخ الطيب العتيبي والسيد عباس التركي من السجن، ووجهت باريس لجنة تحقيق برلمانية إلى الجزائر، كي تتصل بمختلف التيارات السياسية، وتعرف رأيها في الموقف الذي تتخذه من مشروع بلوم - فيبوليت.

بمجرد وصول هذه اللجنة إلى الجزائر اتصلت بالشيخ الطيب العتيبي يوم 6 مارس 1937، بمقره، دون سائر الأعضاء القياديين في الجمعية. عارض الشيخ الطيب العتيبي مطلب التخلي عن الأحوال الشخصية بالنسبة للمستفيدين من مشروع بلوم فيبوليت، وهذا هو نفس موقف جمعية العلماء. لكن الشيخ العتيبي، يكون، حسب آخرين قد قال ما

معناه بعد ذلك للجنة التحقيق تلك: «إذا كان أولو الأمر، يحتمون الأخذ بهذا الرأي فسوف نضطر للقبول به مرغمين».

أما الوفد الرسمي لجمعية العلماء فقد استقبل من طرف اللجنة البرلمانية يوم 16 أبريل 1937 أي بعد اجتماع نفس اللجنة بالشيخ الطيب العتيبي بما لا يقل عن أربعين يوما. فمما يعني ذلك، وما هو تقديره؟ علما بأن وفد جمعية العلماء كان يضم كل الأعضاء القياديين وهم الشيوخ ابن باديس، البشير الإبراهيمي، مبارك الميلى، العربي التبسي، الأمين العمودي. أثناء هذه المقابلة بادر رئيس اللجنة بقوله إن خصوم جمعية العلماء المسلمين يقولون بأنكم تدعون في صحفكم إلى فصل الجزائر عن فرنسا. فأجاب ابن باديس بأن لا أحد من الجمعية فكر في ذلك، ثم سأل رئيس اللجنة رأي الجمعية في إصلاح الأوضاع ويبدو أنه أشار إلى احتمال التخلي عن الأحوال الشخصية كما يفهم من كلام ابن باديس الذي أجابه بما يلي:

«إن كل محاولة لحمل الجزائريين على أن يتروكوا جنسهم أو لغتهم أو تاريخهم أو شيئا من مقوماتهم فهي محاولة فاشلة، مقضى عليها بالخبية، والواقع دل على هذا، ثم أضاف الشيخ: «إن الحالة التعيسة التي بلغت الأمة الجزائرية - وقد اطلمت أنتم عليها أكثر من غيركم - لا يمكن أبدا أن يستمر صبر الأمة عليها أكثر مما صبرت. فالواجب إذن هو إعطاء الأمة الجزائرية جميع الحقوق من محافظتها على جميع مقوماتها». هنا تدخل أحد أعضاء اللجنة من اليمين الفرنسي قائلا يخاطب وفد العلماء:

«إن فائتم ترون أن فرنسا والجزائر شعبان إثنان» أجابه ابن باديس: «إننا نراهما كذلك، وهما في الواقع وبالطبع كذلك، ولا يمنع هذا من تعاونهما كأخوين لا كسيد وعبد».

ثم طلب رئيس اللجنة رأي الجمعية في مشروع فيبوليت فأجاب ابن باديس:

«إن برجوي فيبوليت ما حاز القبول الذي حازه إلا لما فيه من التصريح بالمحافظة على الحالة الشخصية، مع أن ما فيه إنما هو نزر قليل جدا من الحقوق المطلوبة».

أدرك سائل رئيس اللجنة عن رأي الجمعية في الربط بين تمكين الجزائريين، المنصوص عليه في المشروع، من الحقوق السياسية وتخليهم عن الأحوال الشخصية. ثم أضاف قبل أن يبدي الشيخ عبد الحميد رأيه قائلا ما معناه:

لقد فهمنا من بعض الناس، الذين التفت بهم اللجنة البرلمانية أن المسلمين سوف يصبرون ويقبلون فيما إذا فرضت فرنسا التخلي عن الأحوال الشخصية كعشر للتمتع بالحقوق المدنية، بناء على أن الجزائريين صبروا وتحملوا قانون الخدمة العسكرية الإلزامي، رغم رفضهم له، ويبدو من السؤال أن اللجنة تشير -من طرف خفي- إلى الشيخ الطيب العتيبي، بوصفه عالما دينا وضوا في جمعية العلماء.

صحيح أن هناك، من حركة النواب، من أبدى نفس رأي الشيخ الطيب العتيبي، لكن اللجنة البرلمانية، تعرف أن رأي حركة النواب لا يعتد بها في نظر علماء الإصلاح. ولذلك ليس من المستبعد أن يكون المقصود هو رأي الشيخ الطيب العتيبي. أما جواب وفد العلماء عن هذا السؤال فقد عبر عنه الشيخ عبد الحميد بقوله:

«إننا نعتقد أنك وأمثالك تبحثون عن وجه في الإصلاح يظن الجزائر من حالة اضطراب إلى حالة استقرار، وأنا أحرق لكم (أي أؤكد) أنكم إذا أزمتم الأمة الجزائرية المسلمة برفض شريعتها والتخلي عن ذاتيتها فإنكم تكونون قد وضعت أمرا يؤول بالجزائر إلى اضطراب أعظم لا تدري عاقبته».

ثم أضاف الشيخ: «أنا أعتقد أنك وأمثالك تبحثون عن وجه في الإصلاح يظن الجزائر من حالة اضطراب إلى حالة استقرار، وأنا أحرق لكم (أي أؤكد) أنكم إذا أزمتم الأمة الجزائرية المسلمة برفض شريعتها والتخلي عن ذاتيتها فإنكم تكونون قد وضعت أمرا يؤول بالجزائر إلى اضطراب أعظم لا تدري عاقبته».

### واقترح في الوقت

### نفسه حزب الشعب

### السعي إلى تشكيل

### «حزب إسلامي» واسع

### حول برنامج مشترك.

### لكن هذا الاتجاه الذي

### كان يلتقي فيه حزب

### الشعب مع بعض علماء

### الإصلاح الديني، لم

### يتحقق، لأن تيارات

### «المؤتمر الإسلامي»

### تعرضت هي أيضا

### لخلافات انعكست سلبا

### على معنى تكوين

### حزب إسلامي على

### أسس جديدة.

ثم أضاف الشيخ: «أنا أعتقد أنك وأمثالك تبحثون عن وجه في الإصلاح يظن الجزائر من حالة اضطراب إلى حالة استقرار، وأنا أحرق لكم (أي أؤكد) أنكم إذا أزمتم الأمة الجزائرية المسلمة برفض شريعتها والتخلي عن ذاتيتها فإنكم تكونون قد وضعت أمرا يؤول بالجزائر إلى اضطراب أعظم لا تدري عاقبته».